ثامليس سامرا

— ٤ —

بقلم الكبتن كريزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب حضر بعثة الآثار الاسلامية

الاصول المعمارية

﴿ المئذنة ﴾ من الآراء المسلَّم بها الثابتة ان فكرة بناء مئذنة ذات مرقى حلزوني كمئذنة مسجد سامرا وابي دلف مشتقة من الزيجورات البابلية القديمة ، ولكن هاتان المئذنتان ليستا صورة صادقة للزيجورات اذ أن الاخيرة كانت كلها او جُلُّها رباعية التخطيط بمعنى انها كانت مربعة او مستطيلة بنسبة ٣ : ٢ أضف الى ذلك ان الزيجورات لم تكن جميعها من طراز واحد

وقد أثبتت الدراسات الحديثة لهذا الموضوع ان الطراز الذي كان اكثر شيوعاً من غيره في بناء هذه الزيجورات كان شكل برج مدرج ذي طبقات تتناقص سعتها كلما ارتفع البناء وواجهتها عمودية . ويرقى الى قمة الطابق الاسفل منها بسلم خارجي شديد الانحدار . ويمكن الوصول الى الطبقات العليا باجزاء تعتبر امتداداً لهذا السلم

فاذا فرضنا ان هذا السلم كان يرتفع على ٤٥° فمن البديهي ان يرتدّ كل طابق من البناء الى الداخل مسافة تساوي مقدار ارتفاعه . وليس هذا الطراز هو الاصل الذي بنيت عليه مئذنة الملوية ولكنها مشتقة من طراز آخر مسقطه الأفقي مربع ذو سلّم او مطلع قليل الانحدار يدور حول البناء في دورات كاملة حتى القمة

ومن الغريب انهُ لم يبق من هذا الطراز الا مثال واحد هو زيجورات خرساباد الذي اكتشفهُ بلبس Place منذ سبعين عاماً وهو مكوَّن من ثلاث طباق سليمة وبقايا طابق رابع

وقد انتقد بعضهم ملاحظات بلبس في هذا الصدد وعارضوا في دقتها وصحتها ، ورفضها كولديوي Koldewey كلية ولكن من الصعب ان نعتقد أن هذه الملاحظات لم تكن في جوهرها صحيحة وهو يقول انهُ بدلاً من ان يجد البناء مستديراً كما كان ينتظر وجده مربعاً تام التربيع

طول ضلعه ٤٣٫١٠ متر وركنه الجنوبي مبدأ سلم قليل الانحدار ستة درجته متران وعرضها ٨٠ سنتمتراً وارتفاعها ٥ سنتمترات ويمتد هذا السلم على طول الضلع ويدور عند الأركان ثم يستمر صاعداً مارّاً بجميع اركان البرج على التعاقب حتى وجد المستكشفون أنفسهم ثانية عند نقطة لا يزيد ارتفاعها عن النقطة التي بدءوا منها سوى ٦٫١٠ من المتر

***

كانت واجهات البرج محلاة بمجموعة من البدنات والدخلات وبالحافة الخارجية للسلم آثار مزوّقة وجد بعض اجزائها في نقطتين في حالة سليمة تمكننا من معرفة شكل الشرافات التي كانت تحليها. وكان السلم يدور حول البرج على طراز سلم سامرا أي عكس عقارب الساعة كما وجدت ثلاثة ادوار او طباق قائمة ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر وبقايا طابق رابع. وينقص طول ضلع كل طابق عن الذي في اسفله بمقدار اربعة امتار لارتداد كل طابق الى الداخل مترين بسبب السلم وقد وجد بليس Place أن الطابق الاسفل كان محلى بزخارف جصية بيض والثاني ملطخ بالسواد والثالث مائل الى الحمرة والرابع مائل الى الزرقة

واستناداً الى الوصف الذي ذكره هيرودوتس Herodotus عن الزيجورات التي بمعبد بعل بابل اعتقد بليس إن هذا البرج كان مكوناً من سبع طبقات ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر اي ان الارتفاع الكلي للبرج كان يبلغ ٤٢٫٧٠ المتر وهو يساوي بالضبط طول ضلع القاعدة

ومع انهُ لم تكتشف امثلة اخرى من طراز هذه الزيجورات فليس من المعقول أن نعتقد كما فعل كولديوي Koldewey أن بليس Place قد انساق وراء خياله بعيداً ولاسيما انهُ لم يمرّ من قبل على بناء مماثل مما يمكن أن يوحي اليه بهذا الرأي اذ ان بليس نفسه يقول بصريح العبارة انهُ انما كان ينتظر أن يجد بناء مستديراً لا مربعاً

ومهما يكن من شيء فأن الوصف الذي تركه هيرودوتس Herodotus عن زيجورات معبد بعل بابل يثير القول الفصل في موضوع وجود ابراج ذات سلم حلزوني وفيما يلي ترجمة ما رواهُ هيرودوتس Herodotus منقولاً عن ترجمة رولنصن Rawlinson الانكليزية

قال هيرودوتس:— . . . وفي وسط هذه المنطقة برج من البناء المصمت طوله ½ الميل (اي $\frac{1760}{8}$ = ٢٢٠ ياردة) وعرضه كذلك يعلوه برج آخر. وفوق هذا ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ عدد الابراج ثمانية. ويرقى الى القمة من خارج البرج في ممشى يدور حول جميع الابراج وعند ما يصل الصاعد الى منتصف المسافة يجد مجلساً ومقاعد يستريح عليها الصاعدون الى القمة وفي البرج العلوي معبد فسيح بداخله مقعد كبير الحجم محلى بكثير من الزخارف والى جانبه خوان من الذهب». اهـ

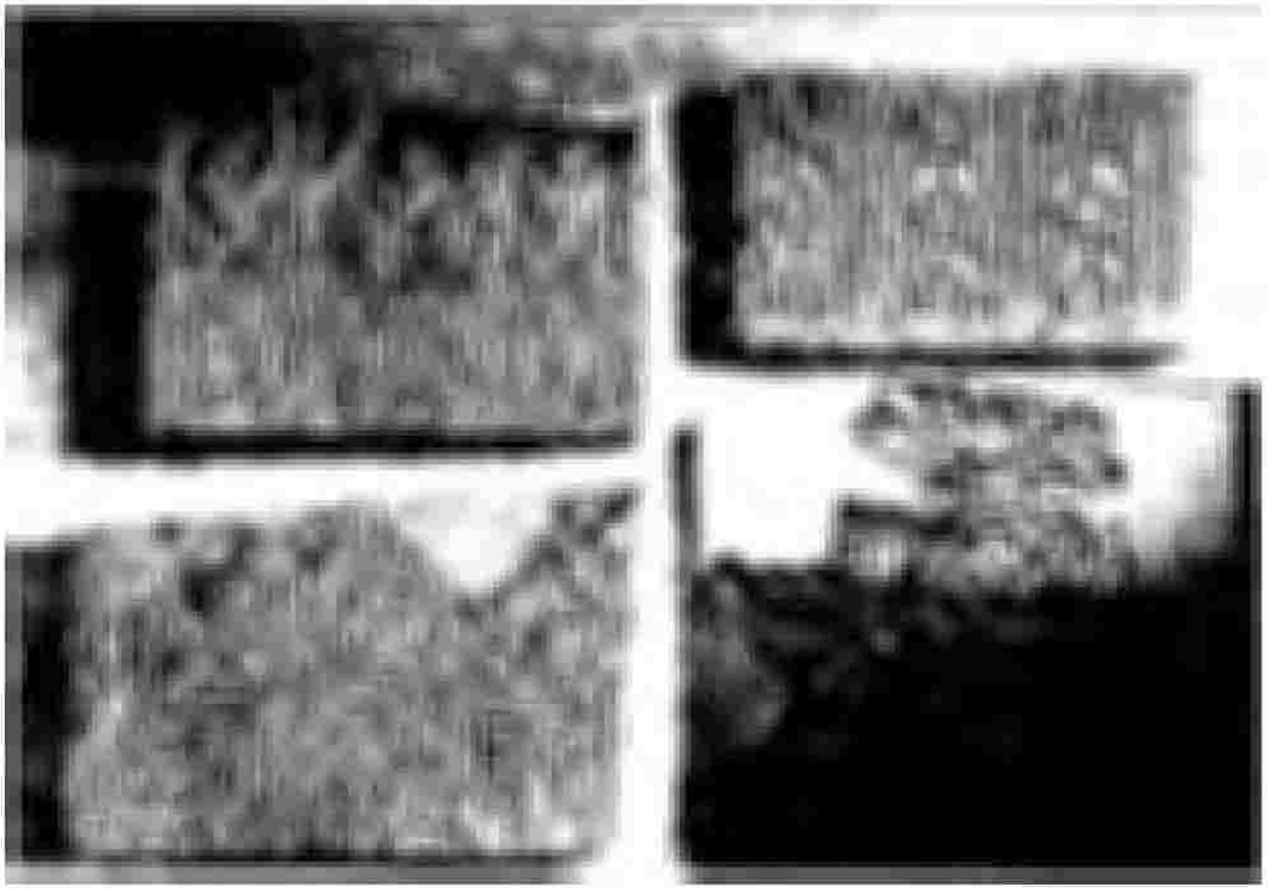

زخارف جصية من الجوسق الخاقاني بسامرا

ويلاحظ هنا أن هيرودوتس يقول ان الطباق كانت ثمانية بينما بلبس Place في اعادة انشائه لزيجورات خرسآباد جعلها سبعة فقط

ولحسن الحظ عثر سميث Smith في رحلته الاخيرة على لوحة تعرف بلوحة ايزاجيلا Esagila وقد نقل نصها على عجل قبل وفاته . وبهذه اللوحة كتابة ترجع الى ٢٢٩ ق.م. وهي وصف حرم مندد وزيجورات بعل بابل وأبعاد طبقاته . وقد عاد كولديوي Koldewey هنا وأبدى كثيراً من الشك قائلاً انهُ ليس هناك اي دليل او أساس يمكن الاستناد اليه في اثبات وجود الابراج المدرجة . وان هيرودوتس نفسهُ لم يقل ان كل طبقة كانت أقل حجماً من التي اسفلها (— يراجع ما رواهُ هيرودوتس وانتقاد فيا سبق وهو القول الفصل في هذه النقطة) وان كان هذا هو المعقول بل الحتم الذي دعت اليهِ ضرورة مادة البناء نفسهُ وهي اللبن ، لأن استخدام هذه المادة اقتضى ان ترتد كل طبقة الى الداخل أكثر من التي اسفلها لمنع تداعي الطبقات السفلى وانهيارها ولهذا السبب نفسه كان من المستحيل من الناحية العملية وجود سلم في جوف البناء ولذلك كان السلم حلزونيًّا خارجيًّا »

ولم يكن احد قد اطلع على لوحة المستر سميث Smith او يعرف اين هي حتى استكشف شابل Scheil مقرها عند احد الافراد ونشرها بنصها الكامل . ومن هذا النص يتضح ان طبقات البناء كانت سبعاً تتناقص تدريجيًّا كما زاد الارتفاع وبالاخيرة منها حرم او مزار الاله

ومع ان هرتسفلد يسلم بأن للأذنة الملوية بسامرا مشتقة من الزيجورات فانه ينكر او كان ينكر اشتقاقها منها مباشرة معتقداً أنهُ لم تكن هناك زيجورات مطلقاً بالقرن التاسع معروفة معرفة تامة او قائمة في حالة جيدة من الحفظ بحيث يصح ان تتخذ نموذجاً تبنى على مثاله مأذنة سامرا ولذلك اعتقد أن هذه المأذنة مشتقة مباشرة من برج جور (فيروزاباد) الذي وصفهُ فلاندن Flandin وكوست Cost وديولافوي Dieulafoy . وهذا البرج عبارة عن كومة مستطيلة الشكل مبنية بالحجارة غير المنحوتة ارتفاعها ٢٨ متراً بها آثار سلم يدور حول جوانبها الأربعة . وقد أخبرني الدكتور هرتسفلد بعد زيارته لها سنة ١٩٢٤ بزمن وجيز انهُ متتبع بأن سلم هذا البرج كان يغطيه قبو اسطواني ساعد لوجود آثار عقد هذا القبو ظاهرة في كثير من المواضع . وبناء على ذلك يكون سلم هذا البرج مغطى كنظائره في الابراج الأخرى . ولا يمكن مقابلتهُ بالزيجورات . فاذا كانت ملاحظات ومشاهدات هرتسفلد صحيحة — وأنا أسلم بصحتها — فلا تكون هناك أية صلة قطعاً بين برج جور والمأذنة الملوية بسامرا

على أنهُ لا يمكن القول إنهُ لم يكن في العراق بالقرن التاسع الميلادي اي مثال او نموذج تبنى على مثاله المئذنة الملوية لان زيجورات بابل المذكورة آنفاً كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة في

سنة ٣٥٥ ب. م وقد وصفها هاربوكراتيون Harpocration الاسكندري في كتابه Cyranides بل انها كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة ايضاً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي وقد رآها بنيامين التوديلي Benyamin of Tudela ووصف سلمها الذي كان يدور صاعداً حولها

***

اذا ما تقرر ذلك كان من الواضح أن الابتكار الوحيد الذي استحدثهُ المهار في مئذنة سامرا في عهد الخليفة المتوكل هو انهُ نقل فكرة بناء الزيجورات وطبقها بنظام جديد فجعل المئذنة مستديرة بعد أن كانت الزيجورات مربعة

على انهُ ليس من المؤكد ايضاً ان هذا كان ابتكاراً لانهُ من الممكن الاعتقاد الآن بانهُ كانت هناك زيجورات مستديرة ايضاً . وقد تكون بقايا احدها قائمة في البناء « البني » الكبير المسمى الذي كشف في Al Hibba والذي عارض هلبرشت Helprecht من أجله نظرية Koldewey « الذي يميل الى اعتبار هذا البناء المرتفع اساساً لقبر هام . وهذا البناء عبارة عن برج مدرج ذي طابقين يرتكز على الارض مباشرة وهو بحالته المهدمة التي هو عليها الآن لا يزال يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدماً وقطر الطابق الاسفل — الذي يرتفع ١٢ قدماً عن السهل — يبلغ ٤١٠ اقدام بينما قطر الطابق الثاني ٣١٥ قدماً فقط . والبناء مبني كلهُ من الطين . والطابق الثاني مكسو علاوة على ذلك بطبقة من الآجر والقار والسطح العلوي للطابقين مبلط بهذه المادة نفسها لتسرب ماء المطر الى البناء

واذا ما استثنينا الشكل الدائري الذي لا يمكن مع ذلك ان يعد اعتراضاً جدياً على نظريتي فان بناء الـ Al Hibba يحوي جميع خصائص الزيجورات المميزة لها . وهو في الحقيقة واحد منها

ومنذ كتب هلبرشت Helprecht ذلك كشفت بقايا مطلع طوله عشرة امتار في الجانب الجنوبي يرتفع بمقدار متر في كل ١٠٠ متر

ويجب أن نذكر في هذا الصدد ايضاً معبد Paneion بالاسكندرية الذي نبه تيرش Thiersch الى مآله من شأن وقد وصفه سترابون Strabo بقوله « وهنا ايضاً معبد البانيون Paneion وهو أكمة مصنوعة على شكل كوز الصنوبر شبيهة بكومة من الصخر يصعد الى قمتها بمرقى حلزوني »

ويظهر ان طراز المئذنة الملوية كان شائعاً في العصر العباسي الاول ، لأنهُ علاوة على وجود بقايا مئذنة مشابهة لمئذنة سامرا بجوار مسجد ابي دلف فاننا نسمع عن برج مشابه لهُ بناه الخليفة المكتفي ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢/٩٠٨م لاغراض دينية . وتقول الرواية ان هذا البرج كان يرقى اليه بسلم حلزوني قليل الانحدار حتى كان الخليفة يصعد الى قمة البرج راكباً حماره . وبذلك كان يستطيع دون اي عناء ان يشاهد الارباض وانقرى المحيطة ببغداد . ويقال ان هذه القبة

كانت عظيمة الارتفاع مستديرة الشكل وتعرف بقبة الخيار مما يدل على انها كانت تعلوها في قمتها سقيفة مقببة

ويظهر أن هذا الطراز انتشر حتى وصل الى الصين حيث كانت تعرف امثال هذه الابراج بالناي Tai او الهو Hu . وقد ذكر بالولوتسوي Palóletsue ان هذه الابراج كانت من خصائص ومميزات المساكن الملكية بالصين من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر

وفي باريس مجموعة من الصور الصينية ترجع احداها الى القرن الثامن عشر وبها صورة بناء شبيه بهذه الابراج . على اننا نعتقد انها لا يمكن ان تمثل بناء كان موجوداً فعلاً او انها نقلت عن نموذج حقيقي لأن دورات السلم في الجانب الايسر من البرج تقع في نفس مستوى دورات الجانب الآخر من البرج بعد نصف دورة وفي ذلك مغالطة ظاهرة

وبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على هذا الرسم لانهُ كما قلنا لا يمكن ان يمثل اي بناء كان قائماً فعلاً

﴿ بلكوار ﴾ يعرف هذا الموضع اليوم باسم المتقور ويبعد ستة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة سامرا الحديثة عند الطرف الجنوبي بمنطقة الاطلال القديمة وقد وجد هرتسفلد في هذا المكان عقداً قائماً من البناء في وسط مساحة كبيرة من الأطلال واضحة المعالم منتظمة التخطيط مما حدا بهِ الى كشف هذه المنطقة من ١٢ يوليه الى ٩ اكتوبر سنة ١٩١١ وسرعان ما وجد امامه قصراً هائلاً عظيم المساحة يطيف بهِ سور ذو أبراج مستطيل التخطيط طول ضلعه ١٢٥٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على شاطىء دجلة الذي يرتفع هنا بمقدار خمسة عشر متراً

وفيما يلي ترجمة ما كتبهُ هرتسفلد عن نتيجة أعماله واستكشافاته في هذا القصر وهو على ما نعلم التحرير الوحيد الذي كتب عن ذلك الى الآن : —

« ليس لهذا المربع سوى ثلاثة ابواب تقع في منتصف الحوائط الثلاثة غير المطلة على النهر اي الشمالية والشرقية والغربية (الحائط الجنوبي مطل على النهر) ويخترقه شارعان رئيسيان متقاطعان على طريقة المعسكرات أو التكنات الرومانية والمساحات التي بين الشارعين في النصف الشمالي مزدحمة بالبناء . وقد لوحظ في تخطيط الابنية وتوزيعها داخل المربع مع مراعاة مجرى الماء القديم

والقسم الجنوبي الغربي من الشارع الاعظم الى جانب النهر يشغله مستطيل ذات مساحته ٤٦٠ × ٥٧٥ متراً بهِ حصن يطيف بهِ سور ذو ابراج وهو يمتد من شاطىء النهر الى نقطة تقاطع الشارعين

اما القصر فله مدخل واحد في وسط جانبه الشمالي الشرقي وهو يقع في منتصف المساحة

بالضبط عند تقاطع الشارعين. وينقسم القصر ثلاثة اقسام متوازية كما في قصر الطاشق بسامرا ايضاً وبالقسم الاوسط منهُ نجد على الترتيب :— المدخل ورحبة الشرف وقاعات العرش. والرحبات في بلكوار ثلاث. اما القاعات وعددها تسع فهي مرتبة على شكل صليب. وقد روعي التناسق والتشابه التام على جانبي محور القصر . وغرف العرش مفتوحة على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة كما أنها مفتوحة ايضاً على النهر

وهناك حديقة خارج خط حائط الحصن يحيط بها سور ذو دعامات أو فصوص وينتهي عند الشاطىء نفسه بسقيفات غنية بالزخارف . والى جانب الحديقة مرفأ للسفن وفي وسطها حوض للماء

***

والواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود كما في بيت الخليفة وقصر المشتى وقد اشتقت هذه الواجهات ذات الثلاثة العقود والتي عقدها الاوسط يزيد في اتساعه وارتفاعه عن العقدين الجانبيين من ابواب الشوارع الهلينية (الاغريقية) القديمة وأقواس النصر الرومانية . ويظهر ان القاعات ذات المداخل والواجهات المماثلة كانت معدة للاستقبالات العامة كما يتضح ذلك من دراسة نظائرها في القصور الشرقية القديمة والحديثة. ومن امثلة ذلك قاعة قصر طاق او ايوان (كسرى) بمدينة طيشفون

وقد كانت هذه القاعات معدة لهذا الغرض في قصور الامراء أيضاً ودليل ذلك ماورد بكتاب الاغاني الذي هو من ذخائر الادب العربي ومن اغنى المراجع في تاريخ الثقافة العربية على لسان اعرابي يصف قصر احد امراء سامرا وهو يقول ان هذا الامير اذن له بدخول غرفته فوجدها شبيهة بقاعة كسرى

والقاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيسي للقصر على شكل حرف T الذي اعتدنا رؤيته في سامرا . اما القاعات الخمس المرتبة على شكل صليب فان الوسطى منها مربعة وكانت لاجتماعات الخليفة الخاصة وهناك اربع مجموعات متشابهة من الغرف بين أذرع الصليب تتكون كل منها من ثمانية غرف تدور حول رحبة صغيرة مربعة. وبينما نجد القاعات الكبرى مسقوفة بالخشب على شكل قبو على الارجح ، نجد الغرف الصغرى مسقوفة بقبوات معقودة من اللبن ذات حشوات غاطسة قريبة الشبه بالسقوف الهلينية (الاغريقية القديمة) ذات الحشوات الغاطسة

وامام القاعات ذات الشكل حرف T الواقعة على المحور الرئيسي ، رحبات وغرف كثيرة أخرى لضرورات المعيشة المنزلية بينها حمام فاخر كان مكسوًّا بالرخام

اما الزخارف فهي على نسق واحد متكرر ويظهر جمالها في اتساقها وتكرارها وكبر المساحة

التي تغطيها لا في دقة صناعتها . وبنا نجد في البيوت الخاصة التي استكشفت بسامرا على كل حائط منها زخارف كثيرة منوعة دقيقة وغنية . والطراز السائد هنا هو طراز سامرا الاول [1] ويغطو وزرات القاعات الرئيسية صفف حائطية منتظمة في ثلاثة صفوف : أسفلها مربع وتعلوه صفة مدببة العقد فوقها دائرة . اما الغرف الصغرى تنجد بها الصفف المربعة في الاسفل تعلوها أخرى بيضية او أهليلجية مدببة او ذات اربع حنايا . على ان الصفوف الثلاثة لا توجد كاملة في أية حجرة من الحجرات

وعلاوة على زخارف الجص نجد في بعض الحجرات زخارف مصورة منقوشة ومذهبة كما يشاهد ذلك في السقيفات المطلة على النهر . اما الواجهة ذات الثلاثة العقود فكانت محلاة بالفسيفساء الزجاجية على أرضية مذهبة في اشكال زخرفية تغلب فيها الفروع النباتية . اما الالوان تنحصر في ألوان الاخضر الذي يتدرج من الاخضر الذهبي الى الاخضر الغامق وبراعم الازهار والفاكهة من اللؤلؤ والارضية من الذهب . وكانت هذه الالوان موزعة جميعاً بنسب متساوية تقريباً . وكانت ابواب الغرف مصنوعة من الاخشاب الفاخرة وكانت غنية بالزخارف المنقوشة والمذهبة ومحلاة بمسامير النحاس المذهبة أيضاً . وكانت النوافذ تملأ بقطع زجاجية مختلفة الالوان منها الازرق اللازوردي والاصفر الباهت والبني والاخضر الغامق والاحمر البنفسجي . على ان هذه البقايا جميعها لا تكفي لتكوين فكرة واضحة تماماً عن زخرفة الحجرات

ويتكون القسمان الآخران من المستطيل العظيم من مجموعة من المنازل المفردة . ونظراً الى كبر مساحة القصر كانت المسافة الواقعة بين حائط النهر وخط الجانب الداخلي من رحبة الشرف الثالثة كافية لتشييد المنازل بها . اما الفضاء المجاور للرحبتين الاوليين فبقي خالياً من البناء تقريباً . وبهذه الطريقة نجد المحور الرئيسي يقسم القصر الى قسمين كما في قصر العاشق . وهذه المنازل المفردة تعد نماذج وأمثلة حقيقية لطراز المنازل الخاصة بسامرا . فهي تتكون من ست عشرة غرفة مجتمعة حول رحبة . وهذه الرحبات مستطيلة الشكل نسبة اضلاعها ٢ : ٣ وفي احد أطرافها قاعة على شكل حرف T . وكان يقطن هذه المنازل خدم وحشم الامير او زوجاته وحرمه

اما في القسم الشمالي فيختلف التخطيط قليلاً اذ نجد شارع السوق ورحبات كبرى يظن أنها كانت مكتنات للعشاة والحرس . وقد لخصنا من قبل في تأسيس سامرا أن المقسم خط القطائع للقواد وللكتاب وللناس . وانه أفرد قطائع الاتراك والحجم وغيرهم عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم . ومنعهم من الاختلاط بهم . ليس معهم في قطائعهم ودورهم احد من

(١) هذا الطراز يسمى الآن الطراز الثالث ويرمز اليه بالحرف C

الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره . ولا يطلق لغريب مجاورتهم . ولا يطلق معاشرة المولدين . الخ . وانهُ أمر قواده وأصحابه ورؤساء جنده ان يبنوا لهم في خلال قطائعهم المساجد والاسواق والحمامات . ولا شك ان هذا كان الحال ايضاً في بلكوار

وقد روى المقريزي في وصف قطائع ابن طولون انهُ كان له القصر والميدان للعب الصوالجة ولا بد ان قصر بلكوار كان فيهِ كل ذلك أيضاً

ولاحظنا في دراستنا لقصري المشتى والأخيضر ان المسجد كان يقع الى اليمين في القسم الاول من رحبة الشرف . ولذلك كنا نعتقد ان هذا هو الحال ايضاً في بلكوار . فمسجد قصر المشتى يقع الى يمين المدخل المكانّ بالحائط الجنوبي وهذا الحائط في سمت القبلة . وفي وسطهِ (اي المسجد) المحراب الذي يدل دلالة واضحة على انهُ مسجد القصر

اما في قصر الاخيضر ، فأن مدخله من الشمال . ومسجده في مثل هذا الموضع أيضاً الى يمين الداخل وهو ذو بوائك وارروقة منتظمة وله محراب في رواقه الجنوبي

فالقصران الاولان في سمت القبلة . اما بلكوار فتنحرف عنها بمقدار ٤٥° درجة

ولذلك فاذا أشيء بهِ مسجد فلا يحتاج الى كبير عناء لمعرفة موقعه لان حائط القبلة به لا بد ان يكون منحرفاً عن بقية الجدران بمقدار ٤٥° درجة

***

وقد ساعدنا هذا الاستنتاج على العثور على موضع المسجد في الرحبة الثانية حيث وجدنا في حائط هذه الرحبة باباً ذا ثلاث فتحات والى يمينهِ مسجد مساحته ١٥ × ٣٥ متراً به صفان من الاعمدة في كل منهما ثمانية عمد . وقد كانت هذه الاعمدة من خشب الساج أو الرخام ولم يبقَ الاّ آثار مواضعها وأسسها وقواعدها التي كانت تبلغ ٥٠ سنتمتراً (أو ذراعاً واحداً)

ولم يبقَ شيء كذلك من أسوار هذا المسجد أو أسسها لانها كانت من الآجر وقد أخذت جميعها وحملت لبنائها الى اماكن اخرى ولذلك لم يمكن معرفة موضع المحراب بهذا المسجد . الاّ اني وجدت بالقسم الجنوبي المقابل مسجداً صغيراً آخر تبلغ ابعاد قاعدته ٧٦ر٧ × ٣٥ر١٠ المتر (اي ١٥ × ٢٠ ذراعاً) وهو مبني باللبن ولذلك لم تمتد اليهِ يد بالعبث أو الهدم

ولهذا المسجد ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ويتكون محرابه من صفة عميقة مستديرة يحف بها الصاف الاعمدة (اعمدة حائطية) يحيط بها رفرف بارز ذو تقوير محدب مكوناً أطاراً مستطيلاً ولذلك يمكن اعادة انشاء المسجد الكبير على هذه الصفة ايضاً

ويعد قصر بلكوار من أعظم المنشآت المعمارية لكبر مساحته وحجمه ووفرة الظواهر الفنية المعمارية فيهِ

ومما يزيد في روعته رحبانه الواسعة بنسبها وتخطيطها وعظمتها . وابوابه يتنوع اطرزتها واشكالها . وواجهاته بعقودها وزخرفها وفسيفسائها وهي جميعاً أدلة ناطقة على منزلة هذا البناء في تاريخ العمارة الاسلامية . كما أن المادة المبني منها افضل بكثير من المواد المستعملة في بناء الابنية الاخرى فان الاسوار المحيطة بالحصن مبنية من الطين ذي اللون الاسود والرحبة الاولى والاقسام الجانبية مبنية من اللبن وبنيا الرحبة الثالثة مبنية من الآجر وكذلك قاعات العرش هذا الى حسن اختيار موقعه ودقة تخطيطه . فان الواقف في الحجرة الوسطى (المركزية) مثلاً يرى الى الشمال الغربي صفّا هائلاً من القاعات ورحبات الشرف الثلاث بأبوابها العظيمة وشوارع المربع الخارجي والى الجنوب الغربي القاعات والحديقة والنهر وسهل الجزيرة الذي لا يصل الى مداه الطرف

وفي المحور الرئيسي يرى الانسان في الشمال الغربي القاعات والمنازل والاقسام الجانبية ووادي النهر يشرف عليها جميعاً على بعد فرسخين ونصف الفرسخ قصر العاشق وقبة الصليبية والى الجنوب الشرقي رأس قناة القاطول وقبة القائم . ولا شك ان تخطيط المتسع على هذه الطريقة مع ما فيه من التناسق وحسن التقسيم على النظام المحوري قد أكسبهُ كثيراً من العظمة والجلال والروعة والبهاء

كما ان المهار قد استفاد كثيراً من طبيعة الأرض وأحسن استغلالها من حيث ارتفاعها وانخفاضها . فالقسم الأوسط مثلاً اكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين كما ان الرحبات تختلف من حيث ارتفاع ارضها وانخفاضها . وترتفع قاعات العرش التي يجلس فيها الخليفة عن جميع أجزاء القصر الأخرى وتكاد تكون أرضها في مستوى السطوح المنبسطة بالاقسام الجانبية

***

تخصيص موقع القصر وتاريخه

يقول اليعقوبي : «توفي الواثق في ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) وولي جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم .وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خانف المطيرة شرقاً بموضع يقال له بلكوار (فاتصل) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ »

ويقول في موضع آخر : « ان المتوكل بنى مدينة جديدة سماها الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسرَّ من رأى مادًّا الى الموضع الذي كان ينزله ابنه ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ... ولا موضع لاعمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ »

وقد استنتج هرتسفلد من هاتين العبارتين أن هذه الاطلال التي وصفنا تخطيطها وبناءها هي اطلال بلكوار لان هذه الصفات التي ذكرها اليعقوبي وهي الأربعة والسبعة الفراسخ توافق موقعه موافقة تامة وهي تكون الطرف الجنوبي لمنطقة الأطلال العظيمة الا بعض الحفارات الطويلة والمنازل الممتدة على شاطىء دجلة مسافة خمس دقائق سيراً على الاقدام ويكون سورها الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي حدود ضواحي سامرا

ولذلك فلا بد ان يكون بلكوار قد بني في عهد الخليفة المتوكل على الله بين سنتي ٢٣٢ و٢٤٧ هـ (٨٤٧ — ٨٦١ م) . على اننا يمكننا ان نحصر التاريخ في عدد اقل من السنين فقد عثر هرتسفلد على كتابة أثرية بالخط الكوفي البسيط على كتلة من الخشب في احدى القاعات قصها « الامير المعتز بالله بن أمير المؤمنين » وهذا هو لقب ابي عبد الله طلحة ابن الخليفة المتوكل

وقد روى ابن خلدون وابن الاثير ان الخليفة المتوكل أعلن ولاية العهد لأبنائه الثلاثة من بعده وهم : محمد المنتصر وابرهيم المؤيد وابي عبد الله طلحة وذلك في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م)

وان الاخير منهم لقب بالمعتز بالله وأعطى ولايات خراسان وطبرستان والري وارمينيا وفارس وآذربيجان

وفي رواية هذين المؤرخين خطأ لحظهُ هرتسفلد فيما يتعلق بلقب المعتز بالله لان المعتز كان يتولى الاشراف على دار سك النقود للامبراطورية الاسلامية كلها وظهر اسمهُ على النقود المسكوكة في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) أبو عبد الله . اما لقبه المعتز بالله فلم يظهر على نقود الا منذ سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) مما يدل على انهُ لم يلقب بذلك الا منذ سنة ٢٤٠ هـ

وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابة التاريخية الكوفية على كتلة الخشب التي أشرنا اليها آنفاً وفيها اسم المعتز بالله اقدم من سنة ٢٤٠ هـ . وبعبارة اخرى إن قصر بلكوار لا يمكن ان يكون انشيء قبل هذا التاريخ

كما انهُ لم ينشأ بعد ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) لان المتوكل كان منهمكاً في ذلك الوقت بانشاء مدينته الجديدة « الجعفرية » التي كان قد عزم على ان يبنيها وينتقل اليها وتنسب اليهِ ويكون لها الذكر وقد ابتدأ النظر في ذلك في سنة خمس واربعين ومائتين وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة اول يوم من محرم سنة سبع واربعين ومائتين

***

وبناء على ذلك يكون قصر بلكوار قد بني بين سنتي ٢٤٠ — ٢٤٥ هـ = (٨٥٤—٨٥٩م)